

التأريخ بالشعر في التراث العربي

Poetic dating within Arab Heritage

علاوة كوسة ، المركز الجامعي سي الحواس - بركة، الجزائر.

Allaoua.koussa@cu-barika.dz

تاريخ قبول المقال: 22-11-2024

تاريخ إرسال المقال: 01-08-2024

الملخص:

تناقش ورقنتنا البحثية هذه تفاصيل فنّ شعريّ عربيّ مهجور نقدياً، وقد ظلّ حيناً من تاريخ الشعرية العربية ظاهرة شعرية ملحّة، وتقليداً تراثياً سائداً ، ولملحاً مهماً في الحضارة العربية ، وهو " فنّ التأريخ بالشعر "، الذي يكاد يختصّ به ديوان الشعري العربيّ دون غيره ، حيث تطرقنا إلى مفهوم التأريخ بالشعر، وتحسّسنا جذوره في التراث الشعريّ العربي، لنقف بعدها عند التأريخ بالشعر على شواهد القبور والأضرحة، مبرزين أهمّ الشعراء العرب - قدامى ومحدثين - ممن كتبوا في هذا الفن الشعري. ونخلص في الختام إلى خصائص هذا الفنّ الشعري ومميزاته.

الكلمات المفتاحية: التأريخ بالشعر، التراث العربي.

Abstract:

This research paper discusses the details of a critically neglected Arabic poetic art form, which has been a significant poetic phenomenon, a prevalent traditional practice, and an important feature of Arab civilization at certain points in the history of Arabic poetry. This art form is "Poetic dating," which is almost unique to the Arabic poetic tradition. The paper explores the concept of historical narration in poetry, traces its roots in Arab poetic heritage, and examines its application on tombstones and shrines. It highlights key Arab poets—both ancient and modern—who have written in this poetic genre. In conclusion, the paper outlines the characteristics and distinctive features of this poetic art form.

Key words : Poetic dating, Arab Heritage

مقدمة:

ارتبط التأريخ بالنصوص الشعرية ، التي كانت مخازن آمنة لأحداثه وشخصياته ومقولاته وأسراره ، هذه النصوص التي تحيل على حياة الأمم السابقة مهما اختلفت ثقافتها ودياناتها وأعرافها، ويخُذ الشعر بوصفه حاملَ أُلوية التأريخ السرمديّ إلى شرفات الخلود، فما حدودُ التداخل بين التأريخ والشعر؟ وكيف تتجلى مضمراتُ التأريخ في الخطاب الشعري ؟ وما الدوافع إلى توظيف التأريخ واستحضار تفاصيله في الشعرية العربية القديمة والحديثة ؟ و ماهي استراتيجيات استحضار التأريخ شعريا ؟ وما حدود المصلحة بين التأريخ و بين الشعر ؟ وما الذي يضيفه كلُّ منهما إلى الآخر؟ ما القناع التأريخي ؟ وكيف يمكن أن يتقنع التأريخي بالشعري ، وأن يتوسل الشعري بالتأريخي كفلسفة لخلود الذات بحصانة تاريخية شعرية ؟ و ما الذي نقصده ب (التأريخ الشعري أو التأريخ بالجميل)؟ ومتى ظهر هذا الفن الشعري الطارئ وأين ؟ ولم لم يعمر طويلا ؟ ولم خلت كتب تاريخ الأدب العربي من "سيرته الأجناسية " إلا ما ندر منها ؟ وقد اعتمدنا إجراءات النقد الثقافيّ منهجا في دراستنا هذه ، بوصف مقولاته الأنسب في هذه المقاربة، جعل النسق في "النقوش الشعرية العربية على شواهد القبور والأضرحة" من التأريخ قناعا، وبأوجه شتى، تختلف عن مفهوم نمطيّ مستهلك للقناع، مفاده أن " يمثل القناع شخصية تاريخية في الغالب (يختبئ الشاعر وراءها) ليعبر عن موقف يريده، أو ليحاكم نقائص العصر الحديث من خلالها"¹ ولكنّ القناع في الشعر الشاهديّ يمثل أكثر من كونه شخصية تاريخية، فقد يمثل: أحداثا وتواريخ وشخصيات، تتخذ منها الأنساق أقنعة لها. يعدّ التأريخ بالشعر (التأريخ الشعري) فنا شعريا عربيا طارئا في مسار الشعرية العربية الطويل والمتنوع ؛ وربما اعتبرناه سُنّة شعرية مهجورة ، ولا أدلّ على هذا الهجر (غير الجميل) من أنّ هذا الفنّ لم يُختص ببحث شافٍ أو بكتاب وافيّ في تاريخ الأدب العربي ونقده ، ونادرا ما يشير إليه النقاد والباحثون وروادُ تاريخ الحركة الأدبية العربية القديمة والحديثة^(*).

¹ إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ط3، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص 121،

(*) بعضُ النقاد الذين تطرقوا لهذا الفن الشعري:

- مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب(ج2).

- إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر .

- طه وادي : الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر .

مارون عبود: رواد النهضة الحديثة.

- طارق فايز العجاوي: تاريخ التأريخ في الشعر العربي ،موقع دنيا الوطن:

<https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/240538.html>

المبحث الأول: مفهوم وجذور التأريخ الشعري (التأريخ بالشعر):

يكاد يتفق الباحثون القائلون في فن التأريخ بالشعر، على مفهوم واحد له، حيث التأريخ بالشعر هو أن يؤرخ الشاعر في نهاية القصيدة - غالباً - للمناسبة التي كُتبت فيها، ويسمى أحياناً "حساب الجمل" أو التأريخ بالحروف، وتقوم هذه الطريقة على الترتيب الأصلي لحروف الهجاء، وهذا غير الترتيب (الألفبائي) الذي نستعمله اليوم"¹

المطلب الأول: يرى إميل بديع يعقوب أن "التأريخ بالشعر"، هو لون بديعي، نشأ على الأرجح، في أواخر العصر العباسي، وذلك بأن يضع الشاعر في آخر أبياته، عادة، وبعد كلمة "أرخ"، أو أحد مشتقاتها غالباً، كلمات إذا حسبت بحساب الجمل، تكون منها تاريخ المناسبة التي يعينها، (وفاة، ولادة، زواج، بناء، تولي، خلافة، ...) ² ويعدُّ مصطفى صادق الرافعي (التأريخ بالشعر) فناً شعرياً متأخراً، مع اتفاق في المفهوم مع سابقه، فيقول: "ويسمونه التأريخ الحرفي أيضاً، لأن المرجع فيه إلى حساب الأحرف الأبجدية، ولا يعرف بالتعيين أول من استعمله في الشعر، وقد ذكر بعضهم أنه كان مستعملاً في الجاهلية الأولى عند شعرائها، وهو وهم"³

يرى بعض الدارسين "أن هذا الفن ليس حكراً على الأدب العربي فحسب بل وجد في الأدب الفارسي و الهندي والتركي"⁴، و اختلف مؤرخو الأدب العربي في تاريخ ظهور فن "التأريخ بالشعر" (*).

¹ طه وادي: الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر، دار المعارف، مصر 1992، ص121.

² إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991، ص318.

³ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب (ج2) راجعه وضبطه عبد الله المنشاوي ومهدي البحيري، مكتبة الإيمان، القاهرة، (دت) ص339.

⁴ طارق فايز العجاوي: تاريخ التأريخ في الشعر العربي، موقع دنيا الوطن، <https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/240538.html>

تاريخ النشر: 2011/10/21 م (اطلعت عليه يوم: 2020/04/27م)

(*) التأريخ كان يكتب خصيصاً للقبر والضريح و نادراً جداً ما يُقْطَع من قصيدة رثاء، ولا تكاد تخلو رثائية من تأريخ وإن لم تكن منقوشة على القبر، وقد اشترط أصحاب هذا القاعدة شروطاً لضبطه وحسن موضعه، ومنها: ألا يكون في بيتين بل في بيت واحد، ويستحسن أن يكون في الشطر الثاني أو جزء منه، كما تحسب الحروف على صورتها دون مراعاة لفظها، فالحرف المشدد حرف واحد، وما ينطق ألفاً (حتى ولو كتب ياء) يحسب ألفاً، والهمزة التي لا كرسى لها، وألف الإطلاق، وألف الوصل التي لا تنطق، كل هذه حروف لا تدخل في الحساب، كما استحسن الباحثون أن تشتمل جملة التأريخ على نكتة أدبية، أو حكمة أو فكاهة، أو تكون على الأقل مؤلفة المعنى خالية من كل هجنة، واعتمد الشعراء المسلمون على التأريخ الهجري أساساً لنظمهم، في حين اعتمد بعض الشعراء المسيحيين التأريخ الميلادي أساساً لذلك (طارق فايز العجاوي)، هناك من يؤرخ بالتاريخ الميلادي والهجري معاً في البيت

التأريخ بالشعر في التراث العربي

واستأنف "الرافعي" الحكم النقدي الذي يُرجع تاريخ ظهور هذا الفن إلى العصر الجاهلي؛ كما أنه يرجّح أن أول بيت شعري استعمل للتأريخ هو ما جاء في تاريخ "فتح القسطنطينية" من طرف السلطان محمد عام (857هـ) وأن لفظة (آخرون) في هذا البيت هي "التأريخ"، فيقول الرافعي: "وعندي أن هذا كان منشأ التأريخ في الشعر" والبيت الشعري هو: رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم (آخرون)¹، ولوم يتفق الباحثون الذين تناولوا هذه الصورة من صور الأدب العربي -على قلتهم- على تحديد زمن ظهور هذا الفن الشعري، ولكن بعض المهتمين أرجع هذا الفن إلى أوائل القرن العاشر للهجرة واعتبروه من محدثات و مستجدات العصور الأخيرة²، كما" يصح أن نسمي القرن التاسع عشر قرن التأريخ شعرا (...). ولكن ابن دريد يقول: وما أحسبه عربيا، أما الزمخشري فاعترف به في "أساس بلاغته"³.

المطلب الثاني: استخدم التأريخ بالشعر في مناسبات مختلفة، وقد توسع بعض الشعراء كثيرا في استعمال هذا المحسن البديعي، فكانوا يؤرخون به لمولد طفل، أو حفل ختان، أو إنشاء دار، أو ذكر سنة المدح أو الوفاة أو التهنية⁴، كما أرخوا به للقاء أو لفراق، أو لعودة من سفر أو رحلة سياحية، أو لزيارة صديق أو حاكم، أو لطبع كتاب وحتى لتقريضه، وأرخوا به للتعيينات في المناصب والوظائف، وتنوعت التواريخ بين المناسبات الوطنية والدينية والثقافية والشخصية، كما مَسَّ هذا الفن/ التأريخ: الوفاة، والميلاد و بناء المساجد والكنائس، والتخرج والزواج. وتاريخ إطلاق اللحي، وأرخ الشعراء أيضا للبناء والتشييد كبناء بيت أو خزان ماء(*) .

الأخير، فالصدر للتاريخ الميلادي والعجز للهجري، كما فعل الشاعر المسيحي عبد الله فريجن، (وهي قمة التعايش الشعري التاريخي الإنساني بين المسيحيين وبين المسلمين) طه وادي: الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر، ص121.

¹ مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ص340.

² طارق فايز العجاوي: تاريخ التأريخ في الشعر العربي (د.ص).

³ مارون عبود: رواد النهضة الحديثة، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص41.

⁴ طه وادي: الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر، ص123.

(*) أما بخصوص كيفية استخدام هذه الطريقة في تأريخ الحوادث يمكن إجمالها بالتالي:

تحسب الحروف الأبجدية في اللغة العربية بحساب الأرقام، يجمعون أحرفاً مجموعة جعلها يساوي تاريخ الحادثة و له معنى يتفق معها، والحروف الأبجدية هي: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ). و حسابها بالأرقام يكون ((أبجد هوز حطي)) تعد من 1_10 فيكون الألف رقم 1 و الباء 2.....الياء 10) ،بعد ذلك يبدأ العد بالعشرات عشرة عشرة (كلمن) = الكاف 20 و اللام 30 و النون 50. والعد في (س ع ف ص) يصبح فيه السين =60 و العين 70 و الصاد 90. وفي (قرشت) القاف =100 وبعد ذلك يبدأ العد بالمئات في (قرشت) القاف =100 و الراء 200 و الشين 300 و التاء المبسوطة 400 و التاء في أول كلمة من (ثخذ) =500 والخاء 600 والذال 700 وأما (ضظغ) فتصبح الضاد =800 و الظاء 900 و الغين 1000 و هنا

التأريخ بالشعر في التراث العربي

من الشعراء الذين اشتهروا في فنّ التأريخ الشعري : ناصيف اليازجي، عبد الله فريج، عبد الله فكري، وردة اليازجي، إسماعيل الخشاب، علي الدرويش، صالح مجدي، محمد شهاب الدين، رفاعة الطهطاوي، إبراهيم مرزوق، وعلي الليثي، حسن العطار، محمد عثمان جلال، إبراهيم اليازجي، نقولا الترك، الطيب الرياحي، إبراهيم الأحذب، بطرس كرامة، مريانا مرّاش الحلبية، عبد الله النديم، حسن حسني الطويراني، محمود صفوت الساعاتي، علي أبو النصر... وغيرهم.

المبحث الثاني: التأريخ بالشعر على شواهد القبور والأضرحة.

المطلب الأول: يبدأ التأريخ الشعريُّ بعدَ لفظٍ دالٍّ على التأريخ ومشتقاته مثل: أرّخ، أرخوا، أرخت، مؤرّخا... ومن ذلك ما ورد على ضريح (جانفزا خانم) زوجة محمد خورشيد باشا (1276هـ)، في عجز البيت الأخير بعد لفظة (أرّخت) :

لما أحاط بجانفزا	جيشُ الرّدى ولها غزا
وسطا عليها بغتةً	و نضا الصّوارم واعتزى
وبكى العفافُ لفقدائها	وشكا وقد عيل العزا
والحورُ قد قالت لها:	بشراك في دار الجزا
ولها هنالك أرّخت	(بالخلد زينة جنفزا) ¹

فالفوز أنشدها يقول مؤرّخا: سلّم هنا فرحت بدار النطق²

ورد التأريخ مقدّمًا بجملة صريحة في صدر البيت الأخير ليُحسب في عجزه على ضريح "عثمان أفندي" (ت 1247هـ)

فانظر تجد التأريخ بدا عثمان رفيقي في الجنه³

تنتهي الأرقام. إذن عند التأريخ لحادثة ما علينا جمع الحروف (أ ب ج ده زح ط 1-9) (يكلمنصفص 10-90) (قرشتخضظغ 100-1000). ينظر: طارق فايز العجاوي: تاريخ التأريخ في الشعر العربي. (د ص)

¹ صالح مجدي بك: الديوان، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1889، ص195.

² نفسه، ص 299.

³ محمد شهاب الدين المصري: الديوان، مطبعة السيد محمد جاهين مصر، 1909، ص244.

التأريخ بالشعر في التراث العربي

تتجلى قيمة "نسق الخلود" في التقنع بقناع "التاريخي" من خلال الاشتغال الشعري على فنّ "التأريخ بالشعر" وذلك لحفظ الذاكرة من الاندثار، و بثّ روح الخلود فيها، فيحيي التاريخ -كما يحيي أسماء الموتى- وهو رميم.

المطلب الثاني: يخلّد التأريخ بالشعر أسماء الموتى (أصحاب الشواهد القبرية) وذلك من خلال ذكر الشعراء أسماء الموتى في عجز البيت الأخير، الذي يتضمن التأريخ، إلا ما ندر وشذ عن القاعدة، ومن أمثلة ذلك ما نُقش من شعر ناصيف اليازجي على ضريح "أنطوان مطر" (ت 1838م):
يا درّة أرخوا وافى بها مطر
كذلك الدرّ منسوب إلى المطر¹.

جرت عادة التأريخ بالشعر، أن يُذكر المؤرخ للمتوفى؛ والذي قد يكون : الله، الملائكة، جبريل، روح القدس، الحور، الشاعر، النوادب وغير ذلك، فأما عند الشاعر محمد شهاب الدين، فالحور هي المؤرخ، وقد خلّد المؤرخ له في الجنة:

والحور الآن مؤرخة
عثمان توجّه في الجنّة²

ويؤرخ (جبريل) على ضريح "يوسف سيور" (ت 1851) إذ:
نادى به جبريل في تأريخه
إنّي بشير لا تخف يا يوسف³

وتتكفل الشاعرة وردة اليازجي بالتأريخ الشخصي في :
في مضجع أرخوه قد كتبت له
يا قبر أيوب يسقيك الندى سحرا⁴

مثلما قد يتكفل زائر القبر بالتأريخ للميت، كما ورد على ضريح "يوسف ساروفيم" (ت 1863):
في مضجع قال بالتاريخ زائر
في الملك عادة قسطنطين قد سبقت⁵

¹ ناصيف اليازجي : الديوان، ص106.

² محمد شهاب الدين : الديوان، ص252.

³ ناصيف اليازجي: نفسه، ص115.

⁴ وردة اليازجي: حدائق الورد، ط2، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، 1887م، ص17.

⁵ ناصيف اليازجي: الديوان، ص133.

تبيّن لنا من خلال هذا المبحث، اشتغال "نسق الخلود" مقتّعا بالتاريخيّ : شخصيات، أحداثا وتواريخ، وأسماء للموتى، وقد بدا لنا القناع التاريخيّ متسترا على هذا التوق إلى الخلود - نسقا مضمرا، وعكس هذا الفنّ الشعريّ الطارئ المهجور (التأريخ بالشعر) آليات اشتغال الأنساق وتقتّعها.

المبحث الثالث: النبوة نسقا شعريا - حوار الأديان والتعايش الإنسانيّ الخالد.

المطلب الأول: ما مغزى توظيف "الدينيّ" شعريا ؟ وما القيمة المضافة في ذلك (في الشعر الشاهديّ تحديدا)؟ وما الغاية من التعالق الشعريّ برموز دينية ، ومنها النبوة والأنبياء ؟ أليس الخلود أحد أبرز هذه الغايات ؟ كيف جسّد شعر القبور الخلود ذكرا ومناشدة وحلما ورجاء ودعاء ؟ لم لم يكّد يخلو شاهد شعريّ من ذكر لفظة (الخلود) أو إحدى مشتقاتها؟

استدعى الشعراء في نصوصهم الشاهدية شخصيات دينية مقدسة، يتعلق جلّها بالنبوة والأنبياء، وكان استدعاءً لصفاتها وأفعالها وأسمائها ، واتخذ الشعراء من النبوة والأنبياء أبوابا متفرقة دخلوا من خلالها مدن الخلود المنشود، واقرنت أسماء الأموات بأسماء الأنبياء، وبدا القرب والجلوس والمكوث في حمى الأنبياء أمانيّ ورغبات وتوقا شديدا، لأنّ تلك الاستحضارات والاستدعاءات والإشارات والالتفاتات "تضفي بعدا علويا على الخطاب الشعري، ويتحدد من خلالها علاقة الإنسان بالخالق، أو علاقة الإنسان بالإنسان، وفق منهج سماوي ينهض على أسس الخير والحرية، أو يستثير الهمم للبذل والتضحية والعطاء"¹ ، كما أنّ الشاعر عندما يخلق شخصية أو يستدعيها تصبح تلك الشخصية مستقر جميع الحركات والأفعال، إنه يختبئ وراءها فتصبح بمثابة نافذة يطل من خلالها على العالم² ، ويمكننا أن نعدّ تلك المستحضرات من الشخصيات أقنعة آمنة لأنساق متفرقة، تختلف باختلاف مقصد الخطاب الخفي للأنساق، وهي أقنعة مانعة من ظهور النسق بعد ضمور، ومانحة للنسق نفسه القدرة على الاشتغال الخفي، مثلما تمنح شحنات من القداسة ، ودفقا عاطفيا دينيا يواكب الدفق الشعوريّ بالفقد والخوف من الفناء والرغبة من الموت، بوصف هذا الدفق معادلا شعوريا للرغبة في الخلود، في عناق بين النسقي العميق وقناعه الجماليّ الظاهر، المتجلي في هذا الاستحضار التناصيّ الرمزيّ الشعري، لأنّ حوار النصوص الحاضرة مع الغائبة جمالية من جماليات التخاطب الشعري ، بما فيها من "قداسة محملة بكم هائل من التداعيات والشحنات العاطفية التي تستدعيها وتثيرها في جسد النص، فتكون

¹ إبراهيم نمر موسى :آفاق الرؤيا الشعرية - دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للكتاب، رام الله، 2005.ص70.

² محمد لطفي اليوسفي: تجليات في بنية الشعر العربي المعاصر، سراس للنشر، تونس، 1985، ص138.

التأريخ بالشعر في التراث العربي

منعكساتٍ شرطيةً جماليةً فنيةً في نفس المتلقي ، تعمق إحساسه بالقصيدة وبالإشعاعات المنبعثة منها¹ ، ومن الأنبياء والمرسلين، والشخصيات الدينية المقدسة التي استدعاها الشعراء في الكتابات والنقوش الشعرية على شواهد القبور والأضرحة: المسيح عيسى وأمّه مريم عليهما الصلاة والسلام، وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف وأيوب ويونس ومحمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً، فهذا عمّ (المصطفى) يختار إلى جواره "محمد المنتظر" كما نُقش على ضريحه من شعر صالح مجدي بك:

هذا ضريحُ التقشبندي الذي هو في التقى بين البرية أُوحدُ
واختاره العباس عمّ المصطفى جارا بقبته قطاب المـرقـدُ
والبدر في سلخ المحرم أرختُ للبدر عباس أضاء محمد²

قرّن الشاعرُ عمر أنسي بين المتوفى المدفون قرب ميناء للصيد، وقد كان صيادا (عبد القادر بن خرشوم) وبين سيدنا نوح وقصة السفينة ، في محاولة لاستحضار فعل النبوة (الاشتغال على السفن) والربط بين المتوفى وبين النبي (نوح)، ليخلد ذكرّ الأول ما خلد ذكرّ الثاني، في استدعاء (قناع) تناسيٍّ بديع، تغمر فيه صفات النبوة الميت فترتسم شهداً شعرياً شاهداً على قبره:

ضريحُ ابنِ خرشومِ سفينةُ سائر بأبحر فضلِ الله في أنجحِ القصدِ
جرت ورياحُ الشوق دعوةً قادرٍ إلى عبده والفوزُ تلبيةُ العبدِ
أقام شرعَ العزمِ في أبحرِ الهدى وألقى مراسي الحزمِ في ساحلِ الرشدِ
وما خاض إلا لجةَ العفوِ و الرضى وما حلَّ أرخُ سوى في جنةِ الخلد³

ينحت الشاعر أبو البحر الخطي من " عروج " النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) و"رفع " سيدنا عيسى (عليه السلام)، إلى السماء، قناعاً دينياً خالصاً قوامه (النبوة) معبراً جمالياً لنسق (الخلود) في السماء، الذي ينشده الشعراء للأموات وللنص الشاهد أيضاً، كما ورد فيما نُقش من شعره على ضريح "الشريف أبو جعفر عبد الرؤوف":

¹ خضر محمد أبو ججوح: التشكيل الجمالي في شعر سميح القاسم، ط1، مكتبة كل شيء، حيفا، 2012، ص106.

² صالح مجدي بك: الديوان، ص76.

³ عمر أنسي: المورد العذب، جمعه. عبد الرحمن أنسي طبيب، المطبعة العمومية، بيروت 1898، ص 106.

تقاصر عن حدّ العروج إلى الأفق
مراسيه مادّت هذه الأرض بالخلق¹

لعمرك ما واروه في الترب إنّه
ولكنه الطود لو يزول عن

يدعو الشاعر ناصيف اليازجي أهل الميت إلى الكفّ عن البكاء، إذ صار فقيدهم إلى جوار المسيح (عليه السلام) وتحقق له الخلود المنشود، كما جاء منقوشاً على ضريح "حبيب الدهان" (ت 1845م):

فادعوا بني الدهان أن يدعوا البكا
يا من على صدر المسيح قد اتكا²

أمسى حبيب الله في فردوسه
لقد اتكأت مؤرخاً في عرشه

يتقاسم الموتى والأنبياء قداسة الأسماء، ويربط شعراء القبور بين الأسماء تلك، بخيط دلالي يجمع بينهما في استحضارات تناصية بديعة، فهذا الفقيد موسى بسترس (ت 1850م) إذ يجاور النبي عيسى (عليه السلام) وسينظر وجه الله، ويطلبه كما طلب رؤية وجه الله (النبي موسى عليه السلام):

تغزى إلى بسترس يا ركن عصبته
وأنت أفضل من يغزى إلى عيسى
سعت لله أياماً مؤرخاً
واليوم تنظر وجه الله يا موسى³

المطلب الثاني: تُعدّ شخصية النبي يوسف (عليه السلام) من أكثر الشخصيات الدينية حضوراً في المتن الشعري الشاهدي، وقناعاً ذا مقدرة كبرى على منح الأنساق حريتها في الاشتغال داخل النص، وعلى منعها من ابتذال الظهور، لما تتضمنه قصة سيدنا النبي من تفاصيل مثيرة ومنعرجات حياتية شديدة العمق الدلالي، و"تبدو قصة يوسف أكثر نزوعاً إلى ما هو إنساني، وأقرب إلى ذاتية الشاعر، ناهيك عما تميزت به سورة يوسف من خصائص فنية جعلت منها مركز اهتمام مكثف من قبل المبدعين عموماً والشعراء على وجه الخصوص"⁴، كما أنّ سورة يوسف "عابرة للعوالم والبشر والأزمنة والأمكنة،

¹ أبو البحر الخطي: الديوان، علق عليه وأخرجه. علي بن الحسين الهاشمي، مطبعة الحيدري طهران، 1901، ص 79.

² ناصيف اليازجي: الديوان، ص 108.

³ نفسه ن ص 110.

⁴ حياة الخياري: النبوة من القرآن إلى الشعر - إعادة ترتيب العالم رمزا، ط 1، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019 م،

التأريخ بالشعر في التراث العربي

ومن ثمّ سيكون هناك مشترك بين من يتلقاها¹ لدى البشرية جمعاء، على اختلاف الديانات والأعراق، وإنّ هذا المشترك هو البعد الإنساني الذي قاله النصّ وانطبع على الإنسانية في اختلاف الديانات ، ودليل ذلك أنّ الشعراء المسيحيين كتبوها على قبور المسلمين، بحسّ إنساني كبير، وبتعاش شعري واعٍ على شواهد القبور والأضرحة. كما كتب الشاعرُ ناصيف اليازجي على ضريح "يوسف العسيلي" (ت 1847م):

هذا العسيلي الذي نزل الثرى
ومسطرّ التأريخ أنشد حوله
كالغصن من حمر المنايا يُقصِفُ
هذا قميصك شاهدٌ يا يوسف²

تستدعي الشاعرة مريانا مراش الحلبية شخصية النبي أيوب (عليه السلام)، لتعكس حالة الصبر (الأيوبي) الأبدى ، وحمل المكابدة الخالدة لأهل الفقيدة ، وقد كتبت على ضريح امرأة متوفاة :
هذي الغزاة مذ نأت عن أرضنا
ويحي لأهل نالهم بفراقها
قد أشرقت في جنة الأبرار
ما نال أيوبا من الأكدار³

حين نقرأ -بعمق- الكتابات والنقوش الشعرية العربية على شواهد القبور والأضرحة، خاصة على شواهد قبور وأضرحة النساء، نكتشف أنّ ذكر الفقيدات قد اقترن بذكر السيدة مريم (عليها السلام) ؛ وبشرف مجاورتها في الجنة ، لما تكتسبه السيدة مريم - وهي أمّ النبي المسيح عليه السلام - من رمزية تكاد تبلغ مقام النبوة، وهي "التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنة آية للعالمين"⁴ ، وهي التي نفخ فيها الله من روحه وباركها ،"فدخل الملاك جبرائيل وقال لها: السلام لك أيتها المباركة الممثلة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء"⁵ ، مثلما وُصفت بالطهر والتبثّل في كثير من الشواهد الشعرية القبرية، وما صادف منها تطابق اسم المتوفاة مع اسم السيدة مريم (عليها السلام) كما ورد على ضريح "مريم بنت بطرس يارد" (ت 1861م):

¹ أحمد الشنهاوي: لا تحزن عليهم - الذهاب إلى يوسف، مجلة (دبي الثقافية) ، أبريل 2009، ص 22.

² ناصيف اليازجي: الديوان، ص 109.

³ مريانا مراش الحلبية: الديوان، ص 19.

⁴ سورة الأنبياء، الآية 91.

⁵ إنجيل القديس لوقا ، دار المعارف، القاهرة، 1978 ، الإصحاح الأول، ص 32.

بالطهر حُق لها النعيم الأعظم

نادى قد اجتمعت ببطرس مريم¹

يا بنت بطرس يارد البكر التي

في العرش محفلك المؤرخ طاهر

ارتبطت السيدة مريم (عليها السلام) في مخيلنا الديني والإنساني بالطهر والطاعات والمكانة العظيمة عند الله، لذلك كان مقامها رغبةً وحلماً وأمنيةً لكل متوفاة، كما جاء منقوشاً على ضريح "مرتا امرأة يوسف التويني" (ت 1864م):

بجمال فردوس النعيم الأعظم

نالت نصيباً صالحاً مع مريم²

قامت بطاعة ربها فتمتعت

فأصاب تأريخي بمرتا أنها

خاتمة:

نقل إلينا الشعرُ الشاهديّ ذاك التعايشَ الشعريّ الديني (بين المسيحيين والمسلمين) نسقا مشكلاً لبنى الشواهد على الشواهد، فقد كان بعضُ المسلمين يكتبون على شواهد المسيحيين والعكس صحيح، و"ليس ثمة فارق كبير بين نصوصها (الشواهد المسيحية) وبين نصوص شواهد القبور الإسلامية، حتى إننا لنجد نفس العبارات الدينية التي تستفتح بها شواهد المسلمين كعبارة (سبحان الحي الباقي) وغيرها من العبارات التي تشير إلى حسن عاقبة الخير وسوء عاقبة الشر، وإن الموت محتوم على كل حي، والجنة مقر كل بار والنار مقر كل فاجر وهو نتاج التأثير بالثقافة الإسلامية السائدة مما ترتب عليه استعارة تلك العبارات"³، مع تسجيل فرق بسيط بينهما؛ فالشواهد الشعرية الإسلامية عادة ما تكون أقصر وأقلّ حزناً وفقداً من الشواهد الشعرية المسيحية.

اتخذَ نسقُ "الخلود" من فن "التأريخ بالشعر" قناعاً يؤمّن عبوره، ويجمّل قبّحه، ويتستر عليه خلال النصوص، ولنسق الخلود مقدرة على التقنّع بالتاريخيّ: شخصيات، أحداثاً وتواريخ.

اتخذت الأنساق من "النبوة" قناعاً منيعاً، واستدعى الشعراء في نصوصهم الشّاهدية شخصيات ومواقف دينية مقدسة، يتعلّق جلّها بالنبوة والأنبياء، واتخذوا منها أقنعةً آمنة لأنها تعدّ دفقا عاطفياً دينياً يواكب الدفق الشعوري بالفقد والخوف من الفناء والرهبة من الموت، ومن الشخصيات الدينية المستدعاة:

¹ ناصيف اليازجي: الديوان، ص 124.

² نفسه، ص 135.

³ فرج الحسيني: تاريخ غزة في نهاية العصر العثماني من خلال شواهد القبور، ص 326.

التأريخ بالشعر في التراث العربي

المسيح عيسى وأمه مريم عليهما الصلاة والسلام ، وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف وأيوب ويونس
ومحمد عليهم الصلاة والسلام جميعا.
قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم نمر موسى :آفاق الرؤيا الشعرية - دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، ط1، وزارة الثقافة، الهيئة العامة للكتاب، رام الله، 2005.
- 2- أبو البحر الخطي : الديوان، علق عليه وأخرجه. علي بن الحسين الهاشمي، مطبعة الحيدري طهران، 1901.
- 3- إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ط3، دار الشرق للنشر والتوزيع، عمان، 2001.
- 4- أحمد الشنهاوي: لا تحزن عليهم- الذهاب إلى يوسف، مجلة (دبي الثقافية) ، أبريل 2009.
- 5- إميل بديع يعقوب: المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1991.
- 6- إنجيل القديس لوقا ، دار المعارف، القاهرة، 1978، الإصحاح الأول.
- 7- حياة الخياري: النبوة من القرآن إلى الشعر- إعادة ترتيب العالم رمزا، ط1، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.
- 8- خضر محمد أبو ججوح: التشكيل الجمالي في شعر سميح القاسم، ط1، مكتبة كل شيء، حيفا، 2012.
- 9- صالح مجدي بك: الديوان، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1889.
- 10- طه وادي : الشعر والشعراء المجهولون في القرن التاسع عشر، دار المعارف، مصر 1992 .
- 11- عمر أنسي : المورد العذب، جمعه .عبد الرحمن أنسي طبيب ، المطبعة العمومية، بيروت 1898.
- 12- فرج الحسيني: تاريخ غزة في نهاية العصر العثماني من خلال شواهد القبور ،مراجعة وتقديم قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية ،ط1، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ،دبي الإمارات العربية المتحدة ، 2017.

- 13- مارون عبود: رواد النهضة الحديثة، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.
- 14- محمد شهاب الدين المصري : الديوان ،مطبعة السيد محمد جاهين مصر، 1909.
- 15- محمد لطفي اليوسفي: تجليات في بنية الشعر العربي المعاصر، سراس للنشر، تونس، 1985.
- 16- مصطفى صادق الرافعي :تاريخ آداب العرب(ج2)راجع وضبطه عبد الله المنشاوي ومهدي البحقيري، مكتبة الإيمان، القاهرة،(دت).
- 17- مريانا مرّاش الحلبيّة: الديوان، المطبعة الأدبية، بيروت، 1893.
- 18- ناصيف اليازجي : الديوان، المطبعة الأدبية، بيروت، 1903.
- 19- وردة اليازجي: حدائق الورد ،ط2، مطبعة القديس جاورجيوس،، بيروت، 1887م .